تاريخهم من لغتهم

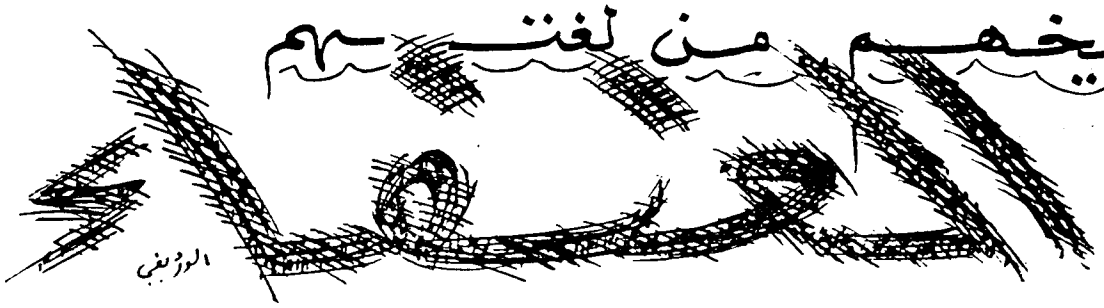

الأستاذ عبد الحق فاضل الدار البيضاء

حين يقول لك المعجم الانكليزي ان كلمة Phoenix تعني طائرا خرافيا فأول ما يتبادر الى ذهنك هو « العنقاء » الطائر الخرافي العربي المشهور، الذي عدوه احد المستحيلات الثلاثة فى القول الشائع : الغول والعنقاء والخل الوفي .

لكن بدا لي أن لفظة Phoenix هذه مأخوذة بشيء من التحريف من كلمة « العنقاء » نفسها . ولم أستغرب ابدال العين فى أول الكلمة لان النون والقاف ما زالا ظاهرين فى الصيغة الانكليزية أولا ، ولان ابدال العين أو حذفها أمر لا بد منه عند الاعاجم لتعذر نطقها عليهم ثانيا ولان العرب انفسهم قد ابدلوا أي حرف بأي حرف آخر فى لغتهم نفسها ثالثا ، ومن امثلة تناوب حرفي العين والفاء فى العربية قولهم : قطع وقطف ، جدع وجدف (قطع) ، عرك وفرك .

لكني مع ذلك لم أطمئن الى هذه النظرية ، لانها تقوم على الحدس دون وثيقة صريحة كصراحة الوثائق القائلة مثلا ان اسم قرطاجة من اللاتينية (Cartago) وهذه من الفينيقية (قريات حديشات) .

واردت قبل كل شيء ان اعرف ائل هذه الكلمة الانكليزية (Phoenix) فوجدت انها من اللاتينية بنفس حروفها ، وائلها الاول من الاغريقية Foinix .

وجاءت الوثيقة الصريحة حين وجدت المعجم اللاتيني يقول لدهشتي أن الكلمة تعني طائرا خرافيا (من بلاد العرب) زعموا انه يعيش 500 عام ثم يحرق نفسه فيموت ومن رماده ينبعث طائر جديد .

هنا ظهر مصداق النظرية ، فالطائر عربي النجار لكن الذي نبا عن سليقتي هو العدد (500) فهو غير مألوف فى أساطير العرب ومأثوراتهم . ذلك ان العرب سبعيون فى تعدادهم اي يؤثرون السبعة ومضاعفاتها عندما يريدون الاطلاق ، لا التحديد . ومن ذلك جاء فى القرآن « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » . فالمقصود بالسبعين هنا التكثير لا التحديد ، لانه لو استغفر لهم خمسا وسبعين مرة مثلا فلن يغفر الله لهم أيضا . ومن هنا قالت العرب ان النسر يعيش سبعين عاما ، كناية عن طول العمر .

وهذا الخاطر جرني الى خاطر آخر وهو ان ثمة اسطورة تقول ان العنقاء سألت ربها أن يهبها العمر الطويل فى هذه الدنيا لقاء تنازلها عن الحياة الاخرى ، وطلبت عمر سبعة نسور يعيش كل منها سبعين سنة، فكان لها ذلك . وعندما انتهى عمرها اي أعمارها السبعة احرقت نفسها وانتهى أمرها. حتى ان الخيام أعجبته المسألة فود لو يكون امره كالعنقاء اي النجاة من كلتا الدنيوين ، يوم قال :

السعيد الحق من لم يك معروف المكان
لم يصر فى فوطة او جبة او طيلسان
فهو كالعنقاء قد طار عن الدارين طرا !
لم يصر مثلي بوما بين اطلال الزمان !

فها هي المسألة قد انحلت ، فالظاهر ان الراوي الاجنبي توخى الاختصار فضرب السبعة فى السبعين فجاء الحاصل بيده (490) اي (500) تقريبا ، فما كان منه الا ان اضاف عشرة من عند نفسه لاتمام العدد الاجمالي فقال موجزا ان العنقاء تعيش (500) عام !

عند هذا الحد اقتنعت **ان كلمة** Foinix **الاغريقية مقتبسة من «العنقاء» العربية. لكن الكلمة لم تنتقل من العربية الى الاغريقية راسا بل عن طريق اللغة المصرية** . فلدى تتبع الموضوع تبين ان هذا الطائر كان مقدسا عند قدامى المصريين وقد اقاموا له معبدا فى هليوبوليس – اي مدينة الشمس – وقد ذكره هيرودتس عند الكلام على الحيوانات فى مصر وقال انه راى صورته وهي تمثل طائرا ذا ريش ذهبي واحمر يشبه النسر شكلا وحجما وقال ان اهل هليوبوليس يعتقدون ان **العنقاء كانت تزورهم قادمة من بلاد العرب كل خمسمائة عام** . ولما كان المعتقد عندهم انها طائر ذكر فلنسمها « الفنقس » وهي الصيغة التى نطقها العرب عند اقتباسهم الاسم الاغريقي غير دارين انه مقتبس فى الاثل من عنقائهم .

وكان المصريون يعتقدون انه يوجد دائما فنقس واحد من نوعه لا ثاني له ، وكان فى نهاية عمره يحرق نفسه فينشأ من رماده فنقس جديد يحمل جثة ابيه محنطة بالتوابل ويذهب بها الى هليوبوليس فيودعها محراب الشمس هناك . والذى يمكن استخلاصه من فحوى الرواية هو ان الفنقس يعود من ثم الى بلاد العرب ثانية حيث يعيش الى ان يستنفد عمره المديد كسلفه وعندئذ يأتي خلفه بجثمانه الى هليوبوليس ، وهكذا فى دورة لا تنتهي .

وكما هي العادة فى تطور كل الاساطير الدينية عند انتقالها من جيل الى جيل ومن شعب الى شعب، تطورت اسطورة الفنقس وصارت تروى على اشكال متعددة وتفصيلات مختلفة حتى ظهرت حكايات تقول ان الفنقس كان يعيش فى آشور او الحبشة او الهند بالاضافة الى الحكاية الاصلية التي تقول انه كان يعيش في بلاد العرب .

وثمة طائر آخر يدعى (بنو Bannu او Bennu) من نوع اللقالق كان مقدسا كذلك عند اهل هليوبوليس وله صلة بعبادة الشمس ، وما زالت صور له موجودة على بعض الآثار المصرية . وقد جاء فى « كتاب الموتى » وغيره من النصوص القديمة ان البنو كان رمزا مقدسا للعبادة فى هليوبوليس . ويرى الباحثون انه كان رمز شمس الشروق لانه يمثل « المتولد من نفسه» ويدعى « قلب الشمس المتجددة » و « روح رع » – و (رع) احد اسماء الاله الشمس .

« ولغة الترانيم التي كان المصريون يسبحون فيها بحمد الفجر المنير عند مجيئه من بلاد العرب مبهجا للآلهة بعبيره وبازغا من غارق لهب وهج الصباح، كافية لان توحي بمعظم الخصائص المتجسدة فى الصور الكلاسيكية للفنقس . اما ان البنو هو اصل الفنقس فيزيده تأكدا ان الكلمة الاولى تعني (النخلة) بالمصرية مثلما تعني الثانية بالاغريقية ... واما كيف ذهب هيرودتس الى الظن بأن الطائر كان يشبه النسر فامر غير موضح قط ، وربما كان هذا مجرد زلة ذاكرة »(1)

مما تقدم يمكن تثبيت الحقائق التالية :

1) – ان كلمة Foinix . الاغريقية اثلها (العنقاء) العربية .

2) – ان الفنقس يأتي من بلاد العرب .

3) – انه يمثل شمس الشروق .

4) – ان البنو له نفس خصائص الفنقس ولعله اصله .

والذي يهمنا التوصل اليه الآن هو **كيف نشأت الفكرة فى بلاد العرب** . ويخيل لنا ان مفتاح السر هو طائر البنو هذا الذي هو من نوع اللقالق . ويبدو انه اللقلق نفسه فى الاصل . فهذا الطائر العجيب يقدم من المناطق الاستوائية وينتشر فى مختلف الامصار حيث يبني عشه حتى فى الاقطار الشديدة الحرارة كالعراق مكشوفا تحت اشعة الشمس الصاهرة مباشرة ، بعيدا عن اي ظل قد يحجبه عن الشمس . فيفقس البيض فى هذا العش ويعيش صغار اللقالق تحت اشعة الشمس اللاهبة منذ الشروق حتى الغروب ، حتى يكبروا ويطيروا ، وفى الظهيرة المحرقة ترى اللقلق يطير فى كبد السماء وقد صف جناحيه ومد عنقه من

---

1) المعلمة البريطانية – ط 9 .

امامه وساقيه من ورائه، سابحا في الفضاء كأنه زورق ينزلق على صفحة الماء ، مستمتعا بتلك الهاجرة التي تصهر الدماغ . فلا غرابة اذا كان العرب القدامى قد توهموا ان لهذا الطائر صلة بالشمس . ولعلهم سموه ولو من باب المجاز « ابن الشمس » ، ثم صار المجاز حقيقة ، ثم صار اللقلق بتعاقب الاجيال رمزا للشمس نفسها . ومثل هذه التطورات قد شملت معظم الآلهة والرموز الدينية ان لم نقل كلها .

وعلى طريقة العرب في تسمية الاشياء بأوصافها احيانا كتسمية الرمح بالاسمر والسيف بالماضي والداهية بالجائحة ، يظهر انهم سموا اللقلق «الاعنق» اي ذا العنق او الطويل العنق ، وهو وصف مطابق للواقع كما هو معلوم . ثم لما صار رمزا للشمس وهي مؤنثة في العربية انثوه فصار اسمه «العنقاء» .

ويبدو ان العرب كانوا يعبدون الشمس ، ولما اخذوا يهاجرون من جزيرتهم على اثر جفافها قبل احد عشر الف سنة حملوا معهم عبادة الشمس الى المناطق المجاورة التي حلوا فيها ، ولعل هذا هو الذي يفسر انتشار عبادة الشمس في وادي النيل ووادي الرافدين وبقية مناطق الهلال الخصيب . ولعل مما يؤيد ذلك تقارب اسماء الاله الشمس عند بعض سكان المنطقة فهو عند الشومريين (أوتو ــ Utu) وعند المصريين (آتون ــ Aton) ، ومن اسماء الشمس بالعربية (اياة) بدون تعريف ، واسم الالاهة الفجر عند البابليين (آيه ــ Aya) وهي زوجة الاله الشمس .

ونظن ان فريقا من العرب قد هاجروا الى مصر فبنى اخلافهم للعنقاء معبد الشمس في مدينة الشمس (هيلوبوليس) في عصور سحيقة قبل عهد هرودتس بآماد لا نعرفها، والظاهر ان صورة العنقاء قد تطورت عندئذ حتى صارت شيئا يشبه النسر بريش ذهبي واحمر يمثل شمس الشروق ، وربما كانوا قد اتخذوا النسر نفسه رمزا لهذه الشمس عند ما صارت العنقاء تدل على طول العمر (اي مجموع اعمار سبعة نسور) .

فان صح ذلك تأيدت رواية هيرودوتس .

ويظهر ان اسم العنقاء قد تخصص عند الحجازيين بشمس الغروب ، وطبيعي ان تكون شمس الشروق القادمة بالنسبة الى مصر من بلاد العرب حسبما ورد في تسابيحهم آنفا هي نفسها شمس الغروب عند سكان الجانب الشرقي من البحر الاحمر .

وهذا هو الذي يفسر لنا لماذا سماها العرب «عنقاء مغرب» ــ زنة مجلس ــ واشهر اسمائها «عنقاء مغرب » ــ زنة محسن ــ اي متجه غربا. ويلفت نظرنا هنا ان هذه الصفة لا تطابق موصوفها بل تباينه في كونها مذكرا بينما المنعوت مؤنث . ولعل تفسير هذا ان صفة « مغرب » اطلقت على الطائر حين كان يسمى « أعنق » ثم لما انثوا المسمي ظلت الصفة على حالها

وربما كان بعض العرب الذين سموا اللقلق (ابن الشمس) سموه اختصارا (ابن) بضم النون ثم حذفوا الالف كما يحذفها المغاربة اليوم في مثل بنتهامي وبنجمعة ، فسموه (بنو) وهو عند المصريين اسم الطائر الشبيه باللقلق الذي يرمز لشمس الشروق . فان صح هذا كان الفريق من العرب الذين سموا الطائر (عنقاء) وهاجروا الى مصر غير الفريق الذي هاجر ربما بعدهم بزمن طويل ممن كانوا يسمونها (بنو) ان كان هذا الاسم من العربية حقا .

واذا كان لنا ان نشك في اثل اسم (بنو) فاننا لا نشك في اسم (العنقاء) الذي لا نعرف كيف نطقه المصريون ، لكن الاغريق اقتبسوه عنهم بصيغة Foinix ، ولا نشك ايضا في ان عبادة العنقاء كرمز للشمس من اصل عربي لان المصريين انفسهم كانوا يعتقدون ان العنقاء تعيش وتموت في بلاد العرب وتأتي عند ولادتها بجثة سلفها الى مصر . ومعنى هذا بكل وضوح ان شمس الغروب بعدما تموت في بلاد العرب تظهر وليدة كشمس شروق في مصر . ولا ندري كم ينفعنا في اثبات نظريتنا «**ان المصريين القدماء لم يسموا بلاد العرب باسم خاص وانما نعتوها في بعض كتاباتهم بـ (ارض الله) »** (1) .

لكن لهذا دلالته الصريحة على ارتباط قدامى المصريين روحيا ببلاد العرب موطن آلهتهم . وهذا يمكن تفسيره ايضا فيما نظن بكونهم جاءوا مع آلهتهم منها . وهو **دليل آخر على قدم الهجرات العربية الى وادي النيل .**

واما ان كلا من كلمتي العنقاء والبنو تعني النخلة ايضا فلعل المقصود به ان كلا من شمس الشروق وشمس الغروب ترسل اشعتها منتشرة مثلما ترسل

---

1) طه باقر ــ «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» ــ ج 2 ــ ص 189 . ط 2

النخلة سعفها اشعة الى الاعلى والجوانب ، فكان أن اطلقوا اسم العنقاء والبنو على النخلة على التشبيه . ولعل النخلة كانت رمز الشمس ذات زمان .

وهكذا حددت لنا هذه الملابسات اللغوية الوطن الذى منه انطلقت العنقاء . فهو ليس آشور ولا الهند ولا الحبشة ولا غيرها من الاقطار التي ظهرت فيها

اساطير عن العنقاء . فالوطن الاصلي هو بلاد العرب . لكن وجود اساطير عن العنقاء فى مختلف البلاد يدل على انتشار الفكرة فى شعوب مختلفة ، وما زالت العنقاء تدل على الخلود فى الفن الصيني والياباني مثلا وهم يرسمونها على شكل طائر جميل ، طويل العنق والساقين ، ملون الريش ، لطيف المنقار ، وكأنه لقلق منقح .